النموذج الاستثنائي والمثل الأعلى

غانية ملحيس [1]

ربما لم أواجه في حياتي المهنية الممتدة لأربعة عقود ونصف مَهمَّةً أصعب من أن أنوب عن العائلة في تقديم شهادةٍ بعميدتها ومثَلها الأعلى هيفاء ملحيس البشير.

ذلك أننا بصدد ظاهرة استثنائية ونموذجٍ متفرّد لمدرسة ومؤسسة. جَمْعُ نساء تختزلها امرأة واحدة لا سقف لأحلامها ولا حدود لطموحاتها. تدير إرادتها بوعيٍ يُطوِّع المستحيل. عصية على الكسر رغم توالي الكوارث في مختلف محطات حياتها. وفي كل مرة يشتدُّ وجعها تتفجر طاقاتها الوفيرة التي لا تنضب.

إنسانة فريدة بكلِّ المقاييس، يصْدُق فيها قول الشاعر راشد عيسى بأنَّها «امرأة تعيش خارج لعبة الزمن، يسكن عقلها الطاعن في الحكمة والنُّبل صبيّةً مفعمةً بالحياة والنشاط. مثل نهرٍ شجاع كلما اقترب من المصبِّ، عاد إلى منبعه بنشاطٍ جديدٍ وروح شبابية دافقة».. هي فعلًا كذلك، وربما أكثر. في كلِّ مرة تلتقيها تُحدِّثك بشغف الحلم الأول، وتبلغك عن مشروعٍ جديد تخطط له وتخاله يحتاج دهرًا لتنفيذه، وعندما تلحظ دهشتك المرتابة، ترمقك بتلك النظرة العالمة بما يختلج بداخلك وتحجم عن البوح به.

إنسانة لا تعرف المستحيل، تؤمن بأنَّ النجاح ممكنٌ على الدوام، لكنه يرتهن بقرار تبلوره رؤية واضحة، وأهداف محددة وخطة عمل وبرامج تنفيذية لتحقيقها.

(1) باحثة وكاتبة اقتصادية وسياسية

توقن بأنَّ العمل عبادة، وأنَّ على الإنسان أن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدًا، وعليه أن يحتكم في سلوكه للمعايير والقواعد التي سنَّها الخالق لحساب الآخرة كأنه سيموت غدًا. وتفهم العمل التطوعي كضريبة مواطنة واجبة الأداء، تحكمه قواعد ملزمة تتأسس على مبدأ التكامل بين الجهد الرسمي والجهد الأهلي، ويرتكز على التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع، وينجح بالعمل الجماعي لفريق عملٍ متكامل واعٍ لمسؤولياته المجتمعية، يلتزم في عطائه الوضوح والشفافية والنزاهة، ويحمل بذور الخير وينثرها لإنصاف المحرومين والمحتاجين والفئات الأقل حظًّا، فيحفظ كرامة المواطن ويقيه شرور العوز، ويحمي بذلك أمن المجتمع ويعزز مناعة الوطن الذي يستظلُّ به الجميع.

تقدّس الحياة ولا تفقد الأمل حتى في أحلك الظروف، تؤمن بأنَّ الإله الخالق كرَّم الإنسان ذكرًا وأنثى، ومَنَحَهُ نعمة العقل ليعقل ويفعل ثم يتوكل عليه، فيغيِّر واقعه بالعقل والعلم والحلم والتخطيط والعمل والصبر والتفاني والإيثار والتواضع والمثابرة، فيؤسس لمستقبلٍ أفضل.

لا تعرف الكلل، ولم تتردد يومًا على الدوائر الرسمية لطلبٍ خاص، وإنَّما لتأمين احتياجات بناء المؤسسات المجتمعية لتقديم الخدمات للفئات الشعبية الأضعف. تزور أهل الخير لتوفير الموارد، وتستعين بكلِّ من يستطيع الإسهام في النهوض وتعزيز المناعة المجتمعية، وتذهلك بجَلَدها ومثابرتها وإرادتها التي لا تلين، وعند اكتمال الإنجاز تنسب الفضل لأهله، وتشعُّ عيناها بفرحة الولادة الأولى وتبدأ التفكير بالمشروع الذي يليه.

ولأنَّ شهادة المرء بأهله مجروحة، حتى إن تعلَّق الأمر بشخصية استثنائية لامرأة هي وزميلاتها الرائدات محور إجماع يصعب تكراره، فقد آثرتُ تناوُلَ شهادة العائلة بعميدتها بعرضٍ موضوعيٍّ مسهب لسيرتها ومسيرة حياتها ودورها وتأثيرها المجتمعي، كي يتمكن من لم يحظَ بفرصة معرفة هيفاء ملحيس البشير، الإنسانة، ورائدة العمل التطوعي، والناشطة السياسية والمجتمعية، والشخصية العامة، وسيِّدة المجتمع الحريصة على

التواصل مع الجميع، من بلورة قناعاته بنفسه، ولكي يتاح للأجيال الفتية الاقتداء بجيل الرواد عبر الإلمام المعرفي بالظروف من جهة، وبالمعايير الموضوعية المتصلة بالأداء القابل للقياس والتقييم، وكي يتسنَّى تحييد تأثير المشاعر الجياشة التي تفيض بها قلوب أبناء العائلة التي عاصرت هيفاء وعرفت فيها الابنة الحانية البارّة بأهلها والزوجة الودودة الشريكة المسؤولة المؤازرة، والأم المتفانية المعطاءة فائضة الحنان، القادرة على أن تظلل برعايتها العائلة بأكملها والمجتمع بأسره، والأخت المتفهمة المصغية التي يمكن للإخوة- إناثًا وذكورًا- البوح لها بمكنونات قلوبهم، والعمة والخالة المحبّة التي ترشد ولا تكبِّل، والجدة العصرية التي يهرع إليها كل الأحفاد لالتماس الدفء والاعتراف بالأخطاء وتبيّن الصواب، والصديقة الحاضرة عندما تحتاج لمرآة ترى فيها ذاتك بوضوح، فتهرع إليها وتسلمها طوعًا مفاتيح عقلك وقلبك، وتأتمنها على مخزن أسرارك.

وقد اخترتُ تضمين شهادتي نتائج تتبّع سيرتها ومسيرتها بقدر ما تسمح به مشاهدات شخصية رسخت في الذاكرة لإلقاء الضوء على الظروف التي شكَّلت وعيها، وما تضمنته الوثائق المنشورة وأتاحت المجال لتتبُّع مسارها على مدى سبعة عقود متصلة من العمل الجاد في المجالات المتنوعة، كالتعليم والتنمية المجتمعية والسياسة والإدارة والأدب والثقافة. فصنعت منها الإنسانة النموذج التي نحتفي بها، كواحدة من أهم رائدات العمل النسوي والعمل التطوعي في الأردن على الصعيدين العربي والدولي، دون إغفال دور زميلاتها الرائدات، اللاتي نذكر منهنَّ على سبيل المثال لا الحصر السيدات: إنعام المفتي، ليلى شرف، الدكتورة عايدة المطلق، إميلي نفاع، انتصار جردانة، ليلى طوقان، نائلة الرشدان، نادية بشناق، عليا أبو تايه، عايدة النجار، عبلة أبو علبة، أسمى خضر، صبحية المعاني، فايزة الزعبي، حياة حويك، هناء سعد الدين، ماري شوارب، ميسر السعدي، سرى خوتات، آمنة الزعبي، ليلى نجار، انتصار الفرخ، عصام عبد الهادي، ليلى نفاع، محاسن الإمام، وداد قعوار، فاديا سمارة، وأخريات تميَّزن بحضور مؤثر في الحياة العامة في ساحة

تعجُّ بالأقطاب الذكور، وأسهمن في تطوير الوعي الجمعي الأردني، وفي تحقيق الاعتراف المجتمعي بجدارة النساء في ممارسة العمل العام في المجالات كافة، وفي الإقرار بأهمية وجدوى العمل التطوعي وضرورته في تفعيل المواطنة الحقَّة للإسهام بالنهوض المجتمعي والوطني.

وُلدت هيفاء ملحيس في التاسع والعشرين من نيسان عام ١٩٣١ في مدينة نابلس، وهي الصغرى الأثيرة بين ستة أبناء، يكبرها ثلاثة أشقاء وشقيقتان.

غادرتها الطفولة مبكرًا، عندما استيقظت صبيحة أحد أيام عام ١٩٣٥ على صوت بكاء أدهشها، لتعلم أنَّ والدها قد فارق الحياة وأنَّه ذاهبٌ للقاء ربه. لم تفهم ابنة الرابعة معنى ذلك، فاصطحبتها والدتها لتوديع والدها المسجى على السرير، وأدهشها أنه لم ينهض كعادته ويستقبلها بحلو كلامه وابتسامته العذبة، وساعدها على تجاوز ألم الفقدان المبكر حرص أمها وشقيقها الأكبر حفظي- الذي يكبرها بنحو عقد- على تعويض غياب الأب الذي لم يرسخ منه في ذهنها سوى طيفه ورنين صوته وبريق عينيه وبسمته الحانية.

وتظافرت الظروف الشخصية والعامة لصقل وعي الطفلة مبكرًا؛ فقد شهدت في سنواتها الأولى إضراب عام ١٩٣٦ احتجاجًا على الغزوة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية لوطنها، وقبل أن تبلغ التاسعة من عمرها اندلعت الحرب العالمية الثانية، فعايشتْ وقائع تواطؤ الكون على وطنها فلسطين، وشاهدت وحشية جيش الانتداب البريطاني ضد أبناء شعبها، واستعصى عليها استيعاب هول الظلم البشري بالتآمر على بلدها الصغير للتكفير عن جرائم ارتكبها الغزاة الأوروبيون في أوطانهم ضد مواطنيهم اليهود، لتجنيدهم قسرًا في مشروعهم الاستعماري التوسعي.

وراعها ما يمكن أن يتحول غليه ضحايا المجازر النازية الذين رفضت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية إغاثتهم وأغلقت حدودها أمام الناجين منهم، ووحدَهُ وطنها استقبلهم!

لقد تعذّر عليها فهم كيف يمكن أن يتسنّى للضحايا ذاتهم- الذين عانوا أهوال المجازر- اتّباع نهج جلاديهم ومحاكاة سلوكهم في إبادة واقتلاع أبناء شعبها الفلسطيني الضعيف الأعزل، واستساغة العيش فوق أنقاضه.

ولم تكد تبلغ الثانية عشرة من العمر، حتى صدمتها وفاة شقيقها عدنان الذي يكبرها مباشرة، وترك رحيله المفاجئ جرحًا غائرًا في روح العائلة، وبلورتْ قسوة الظروف الخاصة والعامة وعي كبارها وصغارها بجوهر الحياة، ووسمتْ شخصيات أفراد العائلة ذكورًا وإناثًا بالجديّة والمسؤولية لجعل وجودهم المؤقت فيها مجديًا.

تلقَّت هيفاء ملحيس تعليمها الابتدائي والإعدادي في مدارس مدينتها نابلس، ولتميّزها وتفوقها حصلت عام ١٩٤٦ على منحة دراسية لدار المعلمات في العاصمة القدس، ولم تمنعها صرامة تقاليد المدينة العريقة التي يُمليها المجتمع الذكوري المهيمن من التشبث بفرصة استكمال تعليمها الثانوي الذي يقتضي منها العيش بعيدًا عن الأسرة وهي ما تزال في الخامسة عشرة من عمرها، فالتحقت بدار المعلمات بدعمٍ من شقيقها الأكبر حفظي، الذي كان يرى في التعليم السلاح الأمضى لمواجهة تحديات الحياة، وكان يؤمن بتساوي حقِّ الإناث مع الذكور في امتلاكه، كما كان واثقًا بقدرة شقيقته هيفاء على تحمُّل المسؤولية تمامًا كالرجال؛ إذ عايشا معا تجربة أمهما الأرملة الشابة في رعاية وتنشئة الأسرة وإدارة شؤونها بكفاءة واقتدار -رغم محدودية الموارد- بعد الرحيل المبكر لرفيق عمرها، وأدركا مبكرًا أنَّ المرأة عندما تمتلك الوعي والإرادة تستطيع أن تماثل الرجل في الأداء وقد تتفوق عليه.

غير أنَّ التطورات السياسية والأمنية التي شهدتها فلسطين في أربعينيات القرن العشرين وقرار الحكومة البريطانية بإنهاء انتدابها على فلسطين في منتصف أيار عام ١٩٤٨ -بعد استكمال مَهمّتها واكتمال جاهزية الحركة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل فوق الجزء

الأكبر من فلسطين- الذي أعقبه إغلاق دار المعلمات في القدس قبل اجتياز الطالبات لامتحان المترك، أعاد هيفاء وزميلاتها إلى ديارهن قبل أن يحققن حلمهن بالتخرج.

ولحسن الطالع تطوَّعت إحدى المعلمات المؤهلات في مدينة نابلس لمتابعة تعليم الطالبات وإعدادهن للتقدم لامتحان المترك، فحصلت هيفاء على شهادة الاجتياز للتعليم العالي الفلسطيني بامتياز عام ١٩٤٨، وقد أسهم ذلك في تنمية إدراك هيفاء لقيمة المبادرة والعمل التطوعي في التأثير الإيجابي على حياة الأفراد والنهوض بالمجتمع.

بعد تخرجها التحقت بكادر التعليم، بدايةً كمعلمة بديلة في المدرسة الفاطمية، ثم عُينت رسميًا في المدرسة العائشية في مطلع عام ١٩٥٠ ولم تتجاوز بعد التاسعة عشرة.

وخلال عملها بالتدريس وجدت في مسرح المدرسة نافذة تثقيفية وتنويرية، فنشطت في تحويل النصوص الأدبية الهادفة إلى نصوص مسرحية تشترك في عرضها المعلمات والطالبات معًا.

كما استقطبت السياسة اهتمامها وهي ترى تداعيات النكبة على حياة شعبها الفلسطيني وعموم الأمة العربية، وشجَّعها شقيقها حفظي، الذي كان ناشطًا في حزب البعث العربي الاشتراكي حديث النشأة، على الانتماء للحزب، فكانت هيفاء ملحيس من أوائل النساء اللواتي ينضممن إلى عضوية حزب البعث.

وكما كان للقدر دورٌ حاسمٌ في تشكيل حياة أبناء الشعب الفلسطيني، فقد لعب، أيضًا، دورًا حاسمًا في تشكيل حياتها الشخصية، فإلحاق الضفة الغربية بالضفة الشرقية عام ١٩٥٠ لتشكلا معًا المملكة الأردنية الهاشمية، وحَّد الضفتين جغرافيًّا وسياسيًّا وديموغرافيًّا، وحطّم الحواجز التي أنشأتها اتفاقيات سايكس- بيكو (١٩١٦)، ووعد بلفور (1917)، وفرضها وكرّسها الانتداب البريطاني بقراره عام (١٩٢٣)، بفصل شرق الأردن عن فلسطين كي يتسنى له استبدال فلسطين بإسرائيل.

وأتاحت إعادة وصل الضفتين غرب وشرق النهر الفرصة لاستعادة الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين أبناء الأمة الواحدة في الأردن وفلسطين، وخصوصًا بين مدينتي السلط ونابلس، فالمسافة بينهما لا تتجاوز ساعة سفر بالسيارة، كما أنَّ السلط كانت قد استقطبت عددًا من عائلات مدينة نابلس في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فاستقروا فيها، وقصدها، أيضًا، عديد اللاجئين الفلسطينيين بعد النكبة عام ١٩٤٨، فألِفَ أهل السلط والقادمون إليها بعضهم بعضا، وأذابت عمليات المصاهرة المتنامية بينهم الحواجز، وأسهمت في تغيير بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدةً، آنذاك، فقد كان زواج الفتيات يقتصر على محيط الأقارب، كما أنّ تجاوزها لا يتعدى نطاق المدينة.

ويشاء القدر أن يتصادف وجود صديق مشترك لشقيقها حفظي وللطبيب الشاب محمد البشير ابن عشيرة العواملة في مدينة السلط، فيجمع ثلاثتهم حزب البعث العربي الاشتراكي، وتصادف أن كان الطبيب الشاب يبحث عن شريكة لحياته ناضجة ومتعلمة وواعية، فأشار عليه الصديق المشترك-حسني الخفش- بهيفاء شقيقة حفظي، وعندما تعرّف عليها، لفتَهُ مع جمالها نضج وعيها وقوة شخصيتها واستقلاليتها، وأعجبه تشاركهما الانتماء إلى حزب البعث، ما يؤسس لتقارب فكري يثري الشراكة بينهما، فتقدم لخطبتها.

ووجدته هيفاء الرجل المناسب لمشاركته حياتها، ودعمَ شقيقها حفظي اختيارها فأقنعا والدتهما- التي كانت شديدة التعلق بها وتريد بقاءها بالقرب منها، وتزوجا عام 1954، وانتقلت للعيش مع زوجها في مدينة السلط، فاستقبلها أهلها بالودّ والحفاوة والرغبة في التعرف على مزايا العروس الشقراء صاحبة العيون الزرقاء القادمة من خلف النهر.

لم تكن السنوات الأولى سهلة رغم الحفاوة الكبيرة لعائلة زوجها الممتدة، والرعاية الخاصة لوالد زوجها الإنسان عبد الرحمن البشير الذي حاول تعويضها الفقدان المبكر لأبيها.

وتفهَّم الزوج الواعي الذي أدرك موجبات التكيّف لزوجته الشابة مع حياتها الجديدة وعائلته الممتدة والعشيرة العريقة وأهالي مدينة السلط، ولفتَهُ حنينها الكبير إلى أهلها ومدينتها نابلس وافتقادها لعملها، فكان شديد الحرص على قضائهما عطلة نهاية كل أسبوع مع أهلها في نابلس، وحافظوا على ذلك طوال السنوات منذ زواجهما حتى عدوان حزيران عام ١٩٦٧.

وما أزال وإخوتي نذكر كم كنا نستبق الأيام كي يأتي يوم الخميس، لنستقبل، والفرح يغمرنا، عمتنا الحبيبة هيفاء وأسرتها، وعمَّنا الحبيب رامز وأسرته، وكان يسكن في مدينة الزرقاء بعد عودته في مطلع الستينيات من أمريكا للمشاركة في تأسيس مصفاة البترول الأردنية التي عمل بها مديرًا فنيًّا لنحو ثلاثة عقود متصلة.

وما أزال أذكر ذاك البريق الذي كان يشعُّ في عيون جدتي وأبي، خصوصًا عندما كانت تطلُّ العمة هيفاء بابتسامتها المشرقة وأطفالها الأربعة؛ إذ لم يكن التوأم قد وُلد بعد، فتعمّ الفرحة والبهجة على الجميع كبارًا وصغارًا، ولن أنسى، أيضًا، ما حييت، الدموع الغزيرة التي كانت تنهمر على وجه الأم المتشبثة بحضن أسرتها بعد ظهر كل يوم جمعة، عندما يحين موعد العودة وكأنها غربتها الأولى، فكانت تبكينا جميعًا.

وكم كنت أعجب لقدرتها الاستثنائية على التواصل مع كل فرد من أفراد عائلتنا الكبيرة المتفاوتة في الأعمار، فقد كانت تُشعِر كلَّ واحد باهتمامها الخاص بشؤونه، فيعتقد بأنه الأثير لديها، وازداد عجبي عندما كبرت وأصبحت أمًّا.

ورغم مسؤولياتها وانشغالاتها الكثيرة، ما تزال تمتلك طاقة هائلة من الرعاية والاهتمام والتواصل مع كل أجيال العائلة، وتحظى بمحبتهم وإعجابهم جميعًا لتمتُّعها بذاكرة نادرة تتسع لحفظ أسماء جميع أفراد عائلتي ملحيس والبشير، وتمتد لأفراد عائلات الأنسباء والأصدقاء الكثر.

لم تضعف مسؤولياتها كزوجة لطبيب دائم الانشغال بمعالجة أهل مدينته لندرة الأطباء آنذاك، وأم لأربعة أطفال تتابعت ولادتهم خلال ست سنوات، ولم تحدّ مستلزمات أدائها الكفؤ من عزيمتها على استئناف عملها بالتعليم.

وعلى الرغم من أنَّ القانون كان يحظر عمل النساء المتزوجات، فقد تمسّكت بفرصة للعودة للتدريس عندما شغر موقع معلمة اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية بالسلط، فتطوّعت للعمل ريثما يجدون بديلة لها، وعندما لم يتمكنوا صدر قرار استثنائي عام ١٩٥٦ بتعيينها رسميًّا لتدريس اللغة الإنجليزية لطالبات المرحلة الثانوية في السلط، وكانت بذلك أول امرأة متزوجة تنال هذا الحق في الأردن.

غير أنَّ الأمور لم تجرِ كما تمنت وأَمِلتْ؛ إذ كان وزير التربية والتعليم ضد عمل المرأة المتزوجة، فأصدر عام 1962 قرارًا تعسفيًّا بنقلها لمدينة الكرك، ما دفعها لتقديم استقالتها، غير أنها لم تستسلم، فإيمانها المطلق بحقّها في العمل، وتجربتها الثريّة، دفعاها للتطوّع لإدارة روضة للأطفال في مدينة السلط في العام ذاته، واصطحاب أبنائها الصغار معها.

في العام 1966 عُيِّن زوجها مديرًا إداريًّا لوزارة الصحة، فالتحقت الأسرة به في عمّان، وفي العام نفسه أنجبت هيفاء توأمًا وأصبحت أمًّا لستة أبناء ذكور استحوذوا مع مساندة الزوج الذي تم ابتعاثه للقاهرة للتخصص في الطب الشرعي والسموم بجامعة عين شمس على جُلِّ اهتمامها، وفي العام 1970 عُيِّنَ زوجها الدكتور محمد البشير وزيرًا للصحة، وكان قد لاحظ خلال عمله بالوزارة نقصًا كبيرًا في قطاع التمريض الأردني، واعتمادًا كبيرًا على الممرضات الأجنبيات، خصوصًا من الهند وبنغلاديش، فقد كانت العادات والتقاليد وثقافة العيب تدفع الأردنيين لمنع بناتهم من دراسة وممارسة مهنة التمريض.

ولقد سعى الدكتور محمد البشير من خلال موقعه وزيرًا للصحة إلى تغيير المفاهيم السلبية السائدة التي تحول دون عمل الفتيات الأردنيات في مهنة التمريض، فقد كان يرى أنَّ فوائد ذلك لا تقتصر على النواحي النفسيّة للمرضى المرتبطة بالتواصل اللغوي والعادات

والتقاليد، بل تمتدُّ، أيضًا، إلى الجانب الاقتصادي والتنمية عبر رفع النسبة المتدنية لمشاركة النساء الأردنيات في العمالة، إلى جانب توفير تحويلات العاملات الأجنبيات من العملة الصعبة لبلادهن.

في البداية حاول الاستعانة برجل دين ليتحدث في لقاء تلفزيوني عن شرف الالتحاق بمهنة التمريض، دون أن يحدث ذلك أثرًا، وهنا أدركت هيفاء الزوجة الشريكة والمواطنة المسؤولة أهمية المبادرة للمساهمة في صنع التغيير المستحق، فاتصلت بزوجات الأطباء وتشاورت معهنَّ لتأسيس جمعية خيرية لدعم قطاع التمريض، وتوافقن على إنشاء «جمعية الأسرّة البيضاء» وتم تسجيلها رسميًّا عام 1970، ووضعن خطة للتوعية وتوجهن إلى مدارس الإناث لتعريفهنَّ بأهمية مهنة التمريض، وبالرسالة الإنسانية التي تنطوي عليها لمساعدة المرضى، وبالدور الاقتصادي والاجتماعي المهم لعمل المرأة، وبالوفورات الاقتصادية الناجمة عن إحلال العمالة الأردنية محلَّ العمالة الأجنبية.

وقد نجحت حملة التوعية التي ترافقت مع اعتماد نظام للحوافز لقطاع التمريض وافتتاح المدارس التمريضية في كلٍّ من وزارة الصحة والخدمات الطبية العسكرية والجامعة الأردنية، في تشجيع الفتيات الأردنيات على الالتحاق بدراسة التمريض وامتهانه، والاستغناء تدريجيًّا عن الممرضات الأجنبيات، ولم تقتصر خدمات عضوات الجمعية التطوعيّة على ذلك، بل امتدت لدعم السلك التمريضي في المستشفيات.

وقد لاحظ رئيس الوزراء، آنذاك، دولة وصفي التل النتائج الملموسة التي أسفرت عنها جهود النساء الرائدات الأردنيات، فدعاهنَّ إلى الاهتمام أيضًا برعاية المسنين الذين لا تتوفر لهم رعاية أسرية.

ولمواكبة مأسسة العمل التطوعي وتوسُّع نطاق اهتماماته، التحقت هيفاء ملحيس البشير عام ١٩٧٤ بدورة في معهد الإدارة الأردني، وفي العام ١٩٧٥ تمَّ وضع حجر الأساس لإنشاء دار الضيافة للمسنين، وانضمَّتْ أيضًا إلى عضوية المجلس الصحي العالي عام

١٩٧٧، وبدأت الدار باستقبال النزلاء عام ١٩٧٩، وتولّت هيفاء رئاسة جمعية الأسرّة البيضاء، وتم تجديد انتخابها لعدة دورات متتالية للفترة ١٩٧٠-١٩٨٣، ثم أُعيد انتخابها لرئاسة الجمعية عام ٢٠٠٠، وجُدِّد انتخابها لدورات متتالية حتى منتصف العام ٢٠١٨، وسُلِّمت الأمانة إلى جيل جديد، فانتخبت السيدة ميسون عرموطي لرئاسة الجمعية التي باتت اليوم تستضيف ١٣٠ نزيلًا من المسنين من الجنسين، ممن لا تتوفر لرعايتهم فرصٌ أسرية.

ولم تقتصر اهتماماتها على الجمعية ورعاية المسنين فقط، بل اهتمت أيضًا بالنهوض بقطاع المرأة الأردنية، فسعتْ لتفعيل دور النساء الأردنيات في خدمة وتنمية المجتمع، وبرزت مشاركتها عام 1974 في اللجنة التحضيرية للإعداد لمؤتمر المرأة الدولي، وشاركت في مؤتمر برلين الشرقية لطرح قضايا المرأة الأردنية.

وفي عزِّ انشغالها بالعمل للنهوض بالمجتمع الأردني، عاجلها القدر باختطاف زوجها وشريكها ورفيق دربها وعماد أسرتها، وفاجأتها نشرة الأخبار في التاسع من شباط عام 1977 بنبأ سقوط الطائرة العامودية التي كانت تقلُّ الملكة علياء ووزير الصحة في طريق عودتهما من زيارة لمستشفى الطفيلة، فأحسَّت بالأرض تميد من تحت قدميها، وبالكاد تمكنت بعد عامين من استعادة وعيها ولملمة أشلاء روحها وطي الحزن العميق الذي سكن قلبها وعقلها برحيل شريك حياتها، تاركًا بعهدتها مسؤولية رعاية ستة أبناء أكبرهم في السَّنة الجامعية الثانية في كلية الطب.

وكان للكوارث المتجددة التي لا يقوى عليها غالبية البشر تأثير مغاير على هيفاء ملحيس البشير، فقد دفعتها الخسارة الفادحة المفاجئة لتوأم روحها إلى استجماع طاقاتها للمضي قُدمًا في تحقيق حلمهما معًا، فنذرت عمرها لتربية أبنائها كما تمنى والدهم، وإعدادهم لتحمُّل مسؤوليات المواطنة الصالحة.

وتفرّغت للعمل التطوعي والخدمة العامة، وقررت أيضًا استئناف دراستها الجامعية عام 1979، واختارت قطاع التمريض الذي استأثر النهوض به باهتمام رفيق دربها، ولأنها لا تعرف المستحيل فقد تحصلت على قرار استثنائي بمعادلة شهادة المترك وخبراتها، للسماح لها بالالتحاق بكلية التمريض، ولم تَدَع انشغالاتها ومسؤولياتها الكثيرة في العمل التطوعي تؤثِّر على تحصيلها العلمي، وقد دعمها أبناؤها الطلبة بكلية الطب، فتبادلوا الأدوار وتحوَّل التلاميذ إلى مدرسين للأم التي عادت إلى مقاعد الدراسة بعد انقطاعٍ لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، وكانوا خير مُعين في شرح ما تحتاجه الطالبة المستجدة لفهم تعقيدات العلوم الطبية.

وحصلت عام ١٩٨٣ على شهادة البكالوريوس في حقل التمريض، واستحقَّت هيفاء ملحيس البشير بجدارة أن تكون الطالبة الأكثر تميّزًا والأكبر سنًّا في تاريخ الجامعة الأردنية (٥٢ سنة)، ونالت مرتبة الشرف الأولى لتفوقها، وترأست واندمجت في لجنة التمريض الوطني عام ١٩٨٥.

كما واصلت السعي لتنمية معارفها العلمية، فالتحقت بدورة الإدارة الاستراتيجية للمنظمات غير الحكومية في مدينة فيرمونت عام 1988 في الولايات المتحدة الأمريكية.

واستطاعت هيفاء ملحيس البشير، برؤيتها الثاقبة وعزيمتها الثابتة وتجربتها الرائدة، أن تجسِّد عمليًّا معاني الوفاء والانتماء والثبات والريادة والإرادة والمثابرة، وصنعت بنفسها الإنسان النموذج الذي يجب أن تتمثل به الأجيال الفتية رجالًا ونساء.

وقد أرّقها كثيرًا إهمال المرضى النفسيين في مجتمعنا المحافظ، فعملت مع عدد من الزملاء والزميلات على إنشاء الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي وتولَّت رئاستها عام ١٩٩٤، وأنشأت عام ٢٠٠٣ «مركز الصفصاف» لرعايتهم، وضمَّ المركز مشاغل للتأهيل المهني من أجل إعادة دمجهم بعد تعافيهم في المجتمع. كما اهتمَّت برعاية الأحداث

فترأست لجنة مكافحة جنوح الأحداث عام ١٩٨٨، وانضمَّت في العام نفسه أيضًا لعضوية لجنة مكافحة الجريمة، وتولَّت رئاسة مركز الصفصاف منذ تأسيسه حتى اليوم.

واهتمَّت هيفاء ملحيس البشير أيضًا بالصحة النفسية لكبار السنِّ، فأنشأت مع زميلاتها الرائدات عام ٢٠٠٩ «منتدى الرواد الكبار» للاهتمام بالشؤون الثقافية والترفيهية للمتقاعدين من الجنسين، وهي تتولى طوعيًّا مسؤولية المدير العام، وقد بات المنتدى أحد أهم الصروح الثقافية في الأردن.

كما انضمَّت إلى ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي عام ٢٠١١، للدفاع عن حقوق المريض، فترأسته، ثمَّ انضمت إلى المجلس الصحي العالي عام ٢٠١٧ لتصبح مندوبة عن الائتلاف الصحي.

ولم تقتصر انشغالات هيفاء ملحيس البشير على القطاع الصحي، بل اهتمت بالتنمية المجتمعية الشاملة، وأولت اهتمامًا خاصًّا للنهوض بالنساء الأردنيات، فساهمت بفاعلية في تأسيس الاتحاد النسائي الأردني العام، وشغلت موقع مقررة اللجنة التأسيسية للاتحاد النسائي الأردني العام، وفازت بانتخابات رئاسة الاتحاد في أول دوراته عام ١٩٨٣، وأعيد انتخابها مرتين لرئاسته حتى عام ١٩٩٠، ومثَّلت الاتحاد في المحافل العربية والإقليمية والدولية، وقد ترأست الوفدين الرسمي والشعبي لمؤتمر نهاية عقد المرأة في نيروبي عام١٩٨٥، وشاركت في المؤتمرات المحلية والعربية التي تُعنى بشؤون المرأة والتنمية المجتمعية، وترأست اجتماعات لجنة المرأة العربية في جامعة الدول العربية عام ١٩٨٤.

كما شاركت في مؤتمرات الأمم المتحدة الدولية في برلين وكوبنهاجن ومانيلا وفينا، وسالزبورغ، ونيروبي، ويوغسلافيا، وبكين في الأعوام ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، على التوالي.

وشاركت في عضوية المكتب التنفيذي لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة البلقاء خلال الفترة ١٩٩٤-١٩٩٦، وأيضًا في عضوية لجنة التنسيق للمنظمات غير الحكومية المنبثقة عن اللجنة الوطنية للمرأة.

كما انضمَّت لعضوية الهيئة التنفيذية للجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٨-١٩٩٠.

وإلى جانب اهتماماتهما الاجتماعية والسياسية والنقابية، مارست شغفها بالكتابة، وخصوصًا في أدب الأطفال، فألَّفت مجموعة قصصية للأطفال للفئة العمرية ٤-١٠ سنوات: «حكايات جدتي»، «فرح وبرج الحمام»، «يوم ماطر وقوس قزح»، «الفرح والسعد» التي استحقت عليها جائزة الملكة نور للقصة القصيرة لأدب الأطفال عام ١٩٩٧، وألحقتها بمجموعة قصصية لليافعين بعنوان « أنا وسما « عام ٢٠١٥، وقد حصلت على عضوية الهيئه الإدارية لاتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين للفترة ١٩٩٥- ١٩٩٧.

كما وثَّقت مسيرة حياتها الحافلة بالعطاء في كتاب بعنوان «محطات لرحلتي مع الحياة» صدر عام ٢٠١٠، وتقديرًا لجهودها المتميزة، تم اختيارها لتولِّي مواقع رسمية، فعُيِّنت عضوةً في مجلس أمانة العاصمة عام ١٩٨٠، كأول امرأة تتبوأ هذا الموقع، وجددت عضويتها في مجلس أمانة عمان لدورات متتالية حتى العام ١٩٩٤، كما عُيِّنت عام ١٩٨٢ عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري الذي تم إنشاؤه لتعويض غياب مجلس النواب، واستمرت حتى عام ١٩٨٤ عند عودة الحياة البرلمانية، وقد تمَّ اختيارها، أيضًا، عام ١٩٩٨ لعضوية مجلس أمناء جامعة آل البيت.

وعرفانًا بدورها المتميز الممتدّ على مدى أكثر من سبعة عقود متصلة في خدمة مجتمعها ووطنها العربيّ، حصلت هيفاء ملحيس البشير على عديد الجوائز والأوسمة، فتمَّ منحها وسام الاستقلال من الدرجة الأولى من جلالة الملك الحسين عام ١٩٧٥، تقديرًا لدور جمعية الأسرَّة البيضاء الاجتماعي، ومُنحت جائزة أديلييد رستوري من المركز الثقافي في

روما تقديرًا لدورها في العمل الاجتماعي عام ١٩٧٧، ووسام الحدائق من الملكة نور للإسهام في أنشطة الحدائق العامة بأمانة عمان عام ١٩٨٨، وجائزة الملكة نور لرائدات العمل النسائي عام ١٩٩٥، وجائزة الأُسرة المثالية في العالم العربي عام ٢٠٠٦ من سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، ووسام العطاء من جلالة الملك عبد الله الثاني في عيد الاستقلال عام ٢٠٠٧، وشهادة ودرع من منظمة الصحة العالمية للمشاركة في الخدمات الصحية التطوعية، وجائزة العمل التطوعي لرعاية كبار السن عام ٢٠١٥ من سموّ الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة، واختيرت عام ٢٠٢٠ من بين ٣٦٥ امرأة عربية ملهمة. وقد تعرضت هيفاء ملحيس البشير في مطلع آذار ٢٠٢٠ لأكبر محنة بفقدان ابنها البكر الدكتور مازن البشير وهو في عزِّ عطائه، الطبيب الإنسان الذي أحبَّه كلُّ من عرفه، فأدمى برحيله المفاجئ إِثر أزمة قلبية حادة قلوب جميع الأردنيين، فتقاطروا بالآلاف، نساءً ورجالًا، شيوخًا وشبابًا لشدِّ أزر أُمِّهِ المؤمنة الصابرة الصامدة المُكابرة المحتسبة، فشدت بصلابتها أزرهم، وأوردت في رسالتها لشكر المعزّين قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «لا دار للخلق بعد الموت يسكنها.. إلا التي كان قبل الموت يبنيها».

وأسكنت حزنها الدفين قلبها المكلوم واستجمعت أشلاء روحها، وعادت هيفاء ملحيس البشير لتواصل عملها التطوعي ولتطمئنَّ على نزلاء دار المسنين ومركز الصفصاف، ولاستئناف الجهد الدؤوب لتأسيس متحف التراث الأردني، لتكثِّف مساعيها من أجل توفير الموارد الضرورية لتأمين استمرار المؤسسات المجتمعية لخدمة وطنها الأردن الذي أحبَّته كما أحبت وطنها فلسطين، وأمضت العمر في خدمته. وما تزال، وهي على مشارف التسعين، تتكئ على عصاها وتواصل عطاءها بالهمَّة ذاتها، وبالثبات والإصرار والعزيمة والإيمان.

وأختتم شهادتي بالشكر الجزيل لمؤسسة عبد الحميد شومان لتميّز حضورها في الساحة العلمية والمعرفية والثقافية والاجتماعية الأردنية، ولحرصها على الإضاءة على جيل الرواد

وتكريم سيدة متفردة بوعيها الإنساني والمجتمعي وعطائها الوفير في خدمة وطنها وشعبها على مدى سبعة عقود متصلة. وتفتخر عائلة ملحيس بأنّها أنجبت إحدى رائدات التغيير والتأثير والإلهام العربيات، وأحد أبرز أعلام العمل التطوعي في الأردن والوطن العربي. وإننا وجيل الأبناء والأحفاد قد حظينا بفرصة العيش في زمنها، والتعلُّم منها، والتتلمذ على يديها في كيفية حب الوطن واستحقاق شرف المواطنة، وبناء نموذجٍ رائدٍ نُجلُّه ونقدِّرهُ، ونأمل أن تقتدي به الأجيال الفتية.